المبحث السادس

الشعر الجاهلي وإعجاز القرآن

ذكر عبد القاهر أن الله سبحانه وتعالى تعبدنا بتلاوة القرآن ، وأمرنا بحفظه ، وحراسته ، حتى لا يُغيّر منه شيء ، ليبقى فينا إلى أن تقوم الساعة كيوم نزل ، ووجه ذلك أن تبقى حجة النبوة ، وبرهانها ، متلوة ، ومسموعة ، وشائعة في الأمة ، نسمعها في ليلنا ، ونهارنا ، وفى صلواتنا ، وذكرنا ، وكلما قرأنا آية ، أو سمعنا آية ، في البيت ، أو في العمل ، أو في الطرقات ، كلما سمعت آية تكون قد سمعت حجة النبوة ، واستنار في قلبك برهانها ، وتظاهرت لديك آياتها ، فحجة الله محيطة بنا ، وقائمة في أفواهنا ، وقلوبنا ، ونحن نصلي ، فرادى أو في جماعة ، وكلما فتحنا المصحف وتلونا آية .

ويرى الشيخ أن هذا يوجب علينا أن يكون علم الإعجاز الكاشف عن هذه الحجة علما مفصلا ، واضحا ، له مسائله ، وأصوله ، وفروعه ، ومتونه ، وشروحه ، كغيره من علومنا المستقرة ، الواضحة ، والتى يتوارثها جيل عن جيل ، الكل يدرس ، ويشرح ، ويضيف ، ويُنقِّح ، علم الإعجاز يجب أن يكون كعلم الفقه ، ميسرا ، مقروءا ، واضحا .

ويرى الشيخ أن هذا ممكن ، وداخل في الوسع ، لأننا كلفنا به ، ولا نكلف إلا بما يدخل في الوُسع ، وتكليفنا به تكليف واضح ، متضمن ، في الأمر بالتلاوة ، وأن الله سبحانه وتعالى الذي يسَّره للذكر ، يسَّر إدراك الحجة فيه ، وإن كان ذلك لا يكون إلا بالاجتهاد ، والجدِّ وكل صواب لا يدرك إلا بجهد وجد .

يقول رحمه الله : « إننا لم نُتَعبَّد بتلاوته ، وحفظه ، والقيام بأداء لفظه ، على النحو الذي أنزل عليه ، وحراسته من أن يُغيّر ، ويبدل إلا لتكون الحجة به ، قائمة على وجه الدهر ، تعرف في كل زمان ويُتَوصل إليها في كل أوان ، ويكون سبيلها سبيل سائر العلوم التي يرويها الخلف عن السلف ، ويأثُرها الثاني عن الأول »[1].

ومما اختص الله به نبينا محمدا ﷺ ، وأكرمه به ، وأكرمنا ، أن يكون برهان نبوته قائما أبد الدهر ، وهذه أجل نعم الله علينا ، ويجب علينا القيام بشكرها ، وذلك ببيانها ، والقيام على خدمتها ، ولا معنى لبقاء المعجزة أبد الدهر إلا أن يكون الأمر الذي به أعجز الثقلين أمرا يمكن أن يدرك ، ويُنصّ عليه ، ويشار إليه ، ومن المستبعد أن تكون المعجزة حاضرة فينا ، وليس لها طريق يوصلنا إليها ، والأمر الذي به أعجزت غائبا عنا ، أو يتعذر الوصول إليه .

يقول الشيخ « لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن ، إلا أن الوصف الذي له كان معجزا قائم فيه أبدا ، وأن الطريق إلى العلم به موجود ، والوصول إليه ممكن »[2].

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٩ .

(٢) المرجع السابق صـ ١٠ .

والذي أريده من وراء هذه الإشارات المختصرة هو أن عبد القاهر يؤكد أنه من المحال أن يعرف الإعجاز بمعزل عن الشعر ، ولا شك أنه يريد الشعر الجاهلي ، لأن كلامه متظاهر على أنه ذروة بيان العرب .

وبيان ذلك عنده أن الحجة التي قامت علينا بهذا الكتاب ، والتى تقهر ، وتبهر ، كلما قرأناه أو سمعناه هي أنه على حد من البلاغة تَقْصُر عنه قوى البشر ، وهذه كلمة مختصرة جدا ، وتطوي وراءها علما متسعا جدا ، وما حّدثت نفس صاحبها بعد سماع آيات الله بأنه يمكن أن يغامر ويأتي بشيء يشبهه .

ولا يدرك هذه الحجة الباهرة ، إلا من علم الشعر ، وعرف بأي شيء يفضل بعضه بعضا ، وكيف ترتقي مراقيه ، حتى تصل إلى الغاية التي لا يجوز لبشر أن يتجاوزها ، وكل من سمع آية من المصحف وعنده هذا العلم يعلم أنها تجاوزت الطوق ، وخرجت عن الوُسع ، وأن الذي يسمعه آية باهرة ، وحجة بينة قاهرة .

يقول الشيخ في بيان هذه الرابطة الوثيقة بين الشعر وحجة الله على عباده : « نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن ، فظهرت ، وبانت وبهرت ، هي أن كان على حد من الفصاحة ، يقصر عنه قوى البشر ، ومنتهيا إلى غاية لا يُطمح إليها بالفِكر ، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك ، إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجارَوْا في الفصاحة ، والبيان وتنازعوا فيها قصب الرهان ، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل ، وزاد بعض الشعر على بعض »[1].

(١) دلائل الإعجاز صـ ٨، ٩ .

ويؤكد عبد القاهر استحالة أن يفهم الإعجاز بمعزل عن الشعر ، وأن من يدرس الإعجاز بمعزل عن الشعر الجاهلي كأنه يدرس الإعجاز بمعزل عن الإعجاز نفسه والإعجاز هو الحجة التي عليها آمن الناس وهي باقية ما بقى التكليف ، والتلاحم الشديد بينها وبين الشعر الجاهلي يجعل رفع أحدهما بمثابة رفع الآخر ، ويقول عبد القاهر في هذا الأمر الذي طالما أغفلناه « إن من يصد عن الشعر صاد عن أن تعرف حجة الله تعالى ، وكان مثله مثل من يتصدَّى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى ، ويتلوه ويقرأوه »[1].

وليس في محادة الله أشنع من أن يكون مثل الشخص مثل من يمنع الناس ، من تلاوة كلام الله ، وهذا الذنب المهلك أساسه الغفلة ، وعدم مراجعة الرأي ، واتباع ما يهجس في الخاطر من غير تمحيص ، وكل الذي أفضى بهؤلاء إلى هذه المهلكة أنهم ساء رأيهم ، وساءت مقالتهم في الشعر ، وأشاعوا في الناس فيه كلاما يصرفهم عنه ، كالذي يجري الآن في زماننا من سوء مقالة في الشعر الجاهلي ، وقد ألحقت وصف الجاهلي بالشعر الذي ذكره عبد القاهر عارياً من هذا الوصف لأمرين ، الأول : أن عبد القاهر وغيره كما سأبين متفقون على أن الشعر الجاهلي هو الشعر الشاعر والكلام الفاخر وهو ذروة بيان العرب ، والثاني : أن أول جيل طولب بهذه الحجة لم يكن بين يديه إلا هذا الشعر الجاهلي ، وأنه قاس القرآن عليه ، فوجد الفرق الفائت ، والبرهان القاهر القاطع ، فآمن من آمن ، وكاع من كاع لقوة صوارفه وهو يعلم أنه الحق .

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٨، ٩ .

ليست أهمية الشعر فقط في أنه يعرف من خلال درسه فضل كلام على كلام كما ذكر الشيخ في النص الذي أثبتناه ، لأن هذا يجعل الشعر في العصور كلها سواء ، بل إنه يغنى عن الشعر كله أن أعرف فضل كلام على كلام من خلال دراسة الخطب ، والوصايا ، والرسائل ، وإنما الشعر الجاهلي له مكان في هذا السياق لا يصلح غيره فيه بالنسبة لبيان الحجة ، وذلك لأن الله جلت حكمته قال للعرب في التحدي : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣) أو ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ (هود:١٣) أو ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٤) وكل هذا جاء بكلمة «فليأتوا» ولم يقل سبحانه فلْيَصْنَعُوا ، أو فليقولوا أو فلينشئوا لأن المراد أن يأتوا من عند أنفسهم مما تقوله ألسنتهم ، أو أن يختاروا مما يحفظون من كلام أوائلهم ويستجيدونه ، وهذا هو شمول التحدي المفهوم من كلمة «فليأتوا» بمعنى لهم أن يأتوا من شعر طرفة ، وامرئ القيس ، ومن كل ما أودعوه في صدورهم ، مهما كان مُعْرقاً في القدم ، فإذا لم يجدوا مثله في ألسنتهم ولا في المحفوظ في صدورهم ، فليشهدوا أنه من عند الله ، وهذا المعنى جاء صريحا في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود:١٣،١٤).

وهذه الآية دالة دلالة واضحة وقاطعة على أن بيان هذا الجيل والذي قبله مما يدخل في قوله سبحانه وتعالى «فليأتوا» هو ذروة البيان الإنساني ونهايته ، وأنه في علم الله سبحانه وتعالى لن يكون هناك جيل آخر في أي زمان ولا في أي مكان أقدر على البيان من هذا الجيل ، ووجه ذلك في الآية

أن الأمر بالعلم بأنه أنزل بعلم الله وأنه كلامه سبحانه ، وليس كلام البشر ، ترتب على عدم استجابتهم ، ولو كان هناك من هم أقدر على البيان منهم ، لما جاز هذا الترتيب ، ولما فرض الله علينا الإيمان القاطع بأنه كلامه ، لأنه يقال إذا لم يستطع هؤلاء أن يأتوا بمثله فقد يستطيع غيرهم ممن هم أقدر منهم ، وبذلك تَسْقُط الحجة ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ، والله سبحانه وتعالى لا يعذب عباده إلا إذا أرسل إليهم رسولا ، ولا يكون الرسول رسولا إلا إذا كان في يده من الله برهان ، لا يتطرق إليه الاحتمال ، وهذا ما أفهمه من الآية ونظائرها ، ولم أذكر أني قرأته لأحد من علمائنا الذين يؤخذ عنهم العلم فراجعه .

والذي قرأته وهو مما يقوي هذا الفهم إجماع الأمة على أن جيل المبعث كان قد بلغ الغاية القصوى في البيان ، وأن الأجيال من بعده تراجعت عنه في هذا الشأن ، وهذه حقيقة شاعت في الأمة ولا ينكرها إلا معاند أو جاهل أو جاحد ، أو من قُضي عليه بالشِّقْوة والتهالك في العصبية كما كان يقول الجاحظ .

يقول عبد القاهر في نص جيد ومفيد افتتح به الرسالة الشافية :

« معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل ، وأن للتفاضل فيه غايات ، ينأى بعضها على بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضا ، وأن علم ذلك علم يخُصُّ أهله ، وأن الأصل والقدوه فيه العرب ، ومن عداهم تبع لهم ، وقاصر فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يُدّعى للمتأخرين من الخطباء ، والبلغاء ، عن زمان النبي ﷺ الذين نزل فيهم الوحي وكان فيه التحدي ، أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أو كمُلوا في علم البلاغة ، أو تعاطيها لما لم يكملوا له ، كيف؟ ونحن نراهم يخملون عنهم أنفسهم ، ويتبرءون من دعوى المداناة

منهم ، فضلا عن الزيادة عليهم؟هذا خالد بن صفوان يقول كيف نجاريهم؟وإنما نحاكيهم؟ أم كيف نسابقهم ، وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعرافهم» انتهي كلامه .

ثم ذكر الجاحظ وذكر أنه فضل العرب على الأمم كلها في أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، وشاهد الجاحظ هو الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك الجيد ، وأن مثل هذا لا يقع لأشعر الناس اليوم إلا في اليسير ، والشيء القليل ، ثم قال عبد القاهر« والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى ، أو أن ينكره إلا جاهل ، أو معاند وإذا ثبت أنهم الأصل والقدوة فإن علمهم العلم»[1].

وقوله رحمه الله :« الأصل والقدوة فيه هم العرب لا يراد به جنس العرب ، وإنما يراد الجيل الذي نزل فيه القرآن» بدليل قوله بعد ذلك« لا يجوز أن يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمن النبي ﷺ» إلى آخر ما قال .

وكذلك لما فضل الجاحظ العرب في هذا الباب لم يرد الجنس ، بدليل قوله ، لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم في البيان إلى آخر ما قال ، وهذا ظاهر وأقول إن طول النظر ، والمدارسة ، والمراجعة ، والتحليل ، والتذوق ، للشعر الجاهلي تنتهي بالدارس إلى هذه الحقيقة لأنه يرى في نفسه الفرق الظاهر بين شعر هذا الزمن ، وشعر غيره ، بل إني أرى هذا الفرق بين شعر هذا الزمن ، وشعر ألصق الأزمنة به ممن يحتج بفصاحتهم ، كجرير ، والفرزدق ، لا يغيب الفرق بين شعر النابغة ، وشعر الفرزدق ، ولا أشك أن الفرزدق كان يدرك هذا الفرق ، بدليل أبياته التي كان يلحق فيها

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٥٧٥-٥٧٧ .

شعره بشعرهم ، وقول عبد القاهر« والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى»، يفيد أن عبد القاهر كان يدرك هذا بطبعه ، وقد نبه إليه في موضع من دلائل الإعجاز وأشرت إليه في موضع آخر .

وقول عبد القاهر في هذه الطبقة : « إنهم الأصل والقدوة وعلمهم العلم» يعود بنا إلى ما ظهر لنا من الربط بين استخراجات عبد القاهر البلاغية وما جرى على ألسنة الشعراء القدماء في وصف الشعر ، وتشبيهه بالبرود والوشي ، والنسج ، إلى آخره ، كما يعود بنا إلى وقوف عبد القاهر المتأمل لما كان يرويه الجاحظ عن حذاق المعاني ، وجهابذة الألفاظ ، وشدة حفاوة عبد القاهر بكلامهم ، وشرحه ، واستنباطه منه ، وشبيه بهذا يقال في الجاحظ ، الذي يؤكد تميز كلام الجيل الذي نزل فيه القرآن ، وأنهم هم أهل البلاغة ، لا ينازعهم منازع ، وإن هذا الاعتقاد فيهم هو أصل حفاوته بكلامهم ، وروايته له ، والاعتداد به ، ووصفهم بأنهم نقاد المعاني ، وجهابذة الألفاظ ، وكل هذا يشير إشارة لا يتجاهلها أهل العلم ، وهي أن أصول القوانين البلاغية مستنبطة من كلام هذه الطبقة المجلية كما قال حازم .

لم أقرأ سطرا واحدا من كلام علمائنا يقدح في الشعر الجاهلي من حيث هو بيان في ذروة البيان ، والذين كان يرد عليهم عبد القاهر كانوا يقدحون في الشعر كله ، وهم عامة وأشباه عامة ، وما كان لعبد القاهر أن يرد عليهم ولا أن يعتد بكلامهم لولا إحساسه الحي اليقظ ، بأن بيان الجيل الذي نزلت فيه الآية ، لابد أن يكون بعيدا عن كل شبهة لأنه هو الكلام الذي قاسوا عليه القرآن ، وأيقنوا أنهم لما سمعوا القرآن سمعوا كلاما لم يسمعوا مثله قط ، وأنه لو كان من كلامهم لعرفوه ، كما كانوا يقولون ، وهذا يوجب علينا

مزيدا من المحاماة عن كلامهم، ومزيدا من صونه، ومزيدا من إحسان درسه، وهذا ما انعقد عليه هم أهل العلم، وظل سائدا في كل العصور، إلى أن جاء عصر الاستعمار وملك العدوُّ الألدُّ زمام المعرفة، وهو من أعرف الناس بمواطن الفتك، ومواطن التدمير، فشاعت في حياتنا العلمية أفكار غريبة، وعجيبة، وتغّير النهر، وأصبحنا نرى أفكارا وتحليلات للتاريخ، وللأدب، وللمعرفة كلها، تغاير ما أجمعت عليه الأمة، ورُبِّيت عليها الأجيال، وسكنت في العقول ولازمتها، وصارت جزءا من التكوين العقلي، والفكري، ومن الواجب أن نراجع حتى لا يختلط علينا الأمر، ولن أفتح الباب في هذا لأنه موضوع متسع ولابد أن تكون متسع القراءة متسع الوعى، واليقظة، وأن تقرأ الكثير لتعرف القليل، وإلا هلكت، وأهلكت من حيث تظن أنك تفيد، ويكفي أن تراجع كم هي الحملات التي وجهت إلى الشعر الجاهلي من لدن عصر الاستعمار، ولم تكن كلمة واحدة مما تقال فيه الآن موجودة في كتبنا، قالوا إنه شعر مكذوب على الجاهلية، وقالوا إنه سطحي، ومادي، وجنسي، وشبقي، ومفكك، وليس له رابط، وقائم على وحدة البيت، وإنه زفّةُ نفاق إلى آخر ما تقرأ. وظهر في كل قطر مثقف كبير من بني حنيفة من صُلب مسيلمة الكذاب، وارتضع من ثدى سجاح حتى كرع، ومن ورائه ربيعة تقول كاذب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، وكل هذا متجه إلى الشعر الجاهلي خصوصا، لأن الحجة كما قال عبد القاهر من المحال أن تدرك إلا به، وهدمُه هو طمس الطريق الواصل إليها.

ومن الأهمية البالغة أن نتعرف على الشيء الذي وضع أصحاب هذا الشعر وهو الجيل الذي خوطب بالتحدي أيديهم عليه في الكتاب العزيز

وأشاروا إلى أنه هو الذي أعجزهم ، وأنا كلف أشد الكلف بجمع كل كلمة تحدث بها رجال هذا الجيل عن القرآن ، ووصفهم له ، من آمن منهم ومن كفر ، لأن هذا من علم البلاغة بمكان .

وقد رأيت الشيخ عبد القاهر وكأنه شغله هذا الشاغل في زمنه القديم ، فذكر نصا جليلا في دلائل الإعجاز عنوانه عن أي شيء عجزوا؟ أو عنوانه البحث عن الشيء الذي أعجزهم في القرآن الكريم؟ وكان عبد القاهر وهو يسوق هذا النص في قمة التجلي ، والبحث اليقظ الحي عن أهم ما يبحث الباحث عنه ، وكأنه كان يداخل نفوس هذا الجيل ، وهم يسمعون القرآن ، لأول مرة ، وقد بهرهم منه ما بهرهم ، وقهرهم منه ما قهرهم ، وهو يحاول أن يستخلص من صدورهم الإحساس بهذا الذي بهر ، وهذا الذي قهر .

قال رحمه الله : « فخبرونا عنهم عماذا عجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه ، وحسنها ، وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟فإن قلتم عن الألفاظ فماذا أعجزهم من اللفظ؟ أم ما بهرهم منه؟ فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه ، وإعلام ، وتذكير ، وترغيب ، وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشرا عشرا وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما »[1].

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٣٩ .

قلت إن هذا نص جيد ، وترى فيه عبد القاهر يتغلغل في مكونات البيان القرآني واحدة واحدة ليضع يدك على الشيء الذي لم يكن في شعر القوم ، وبيانهم ، الذي بلغ الذروة ، ويُحدِّد لك ما بهرهم ، وأعجزهم وكأنه يقارن مقارنة صامته بين هذا الذي نزل ، وما كان بين أيديهم من شعر ، ثم إنك ترى عبد القاهر في هذا النص أيضا كأنه يحدثك بلسان القوم ، وكأنه يُقَلّبُ مكونات الآيات القرآنية بذائقتهم هم ، ويراها بعيونهم هم ، هذه الذائقة التي أَلِفَتْ أرقى صور البيان ، ماثلة في شعرهم ، ومأثور شعر آبائهم ، ويحدثك عبد القاهر عن الذي وجدوه لما سمعوا ، وتغلغلوا فيما سمعوا ، ولم يحدثك عما وجدته الأجيال بعدهم ، ولا عن ما وجده هو ، لأن عجز الأجيال بعدهم ليس برهانا ، ولا عجز عبد القاهر ليس برهانا ، وإنما البرهان في عجز من نزل فيهم ، وهذا جيد ويجب أن يُتَنبّه إليه وأن يستخرج ، راجع قوله ماذا أعجزهم . . .وأنهم وجدوا . . . بدائع راعتهم إلى آخره لأنه الذي قصدناه وكنت أتمنى لو أن أجيال علمائنا بعد عبد القاهر الذين لخصوا علمه ، وصنفوه ، ونظموه ، ووضعوه في قواعد ، وقوانين ، لو أنهم تناولوا هذه النصوص ، وأشباهها في كلام عبد القاهر ، وفتحوا باب فهمها ، وضربوا لها الشاهد ، والمثل ، ولكن ذلك لم يحدث ، لأنهم انصرفوا إلى ما يعلم الناس البيان كالتقديم ، والحذف ، والفصل والوصل إلى آخره وهي أبواب جليلة وبالغة الفائدة ، وتركوا لنا هذا من بين ما تركه المتقدم للمتأخر ، والسلف للخلف .

وعليّ إذن أن أفتح باب شرحه وفهمه ، وضرب الشاهد والمثل فإن رأيت في كلامي صوابا فزده بصواب آخر تراه ، وإن رأيت في كلامي عوجا فنبه

إليه ، لأن غايتي وغايتك هي أن نفتح ينابيع العلم في كلام هؤلاء الكملة رضوان الله عليهم ، لأجيالنا القادمة .

وقول الشيخ عبد القاهر «عما ذا عجزوا» سؤال في غاية الأهمية وجوابه هو كل ما كتب في دلائل الإعجاز ، وكل ما كتب في كتب الإعجاز ، وكل ما كتب في كتب البلاغة ، كل هذه الدراسات تبحث عن الشيء الذي أعجزهم ، وتحاول أن تصفه ، وصفا بينا ، كاشفا ، فتصيب من ذلك ما تصيب ، ويخطئها منه ما يُخْطئها .

وقول الشيخ «فإن قلتم عن الألفاظ فماذا أعجزهم من اللفظ»؟ فيه أنه تخطَّى دقة معانيه ، وحسنها ، وصحتها في العقول ، وليس معناه أنه يراها بمعزل عن الإعجاز ، ولا بد أن نفرق بين ما اتفق عليه أهل العلم بالشعر من أن المعاني لا مدخل لها في فضل كلام على كلام ، وأن المهم هو التأليف ، والتصوير ، وإحداث هيئات وصور في تلك المعاني على حد ما هو معروف ، وأن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والبدوي ، لا بد أن نفرق بين هذا وبين ما نحن فيه ، لأنه لا يجوزلمن له عقل أن يقول في الإعجاز إن المعاني مطروحة في الطريق ، لأن معاني القرآن داخلة في وجوه إعجازه ، وهي جزء من آياته البينات ، هي تشريع ، ودين ، وأمر من الله لعباده بالذي يجب أن يعملوه ، ونهي عما يجب تركه ، وعقائد ، وإخبار بغيب ، وحساب وجنة ، ونار ، وقد مرّت على أخباره ، وآدابه ، وتكاليفه ، وحلاله ، وحرامه ، القرون ، والدهور ، ولم يستخرج واحد مغمزا في أمر ، ولا نهي ، ولا مغمزا في خبر من أخبار الأمم الماضية ، وقد أشار الحق جل جلاله إلى أن أنباء الغيب التي يوحيها إليه صلوات الله وسلامه عليه ما كان

يعلمها عليه السلام ولا قومه ، وأنها وحي محض ، وما كان لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، إلى آخره ، وهذا قاطع في أن إعجازا داخل هذه الأخبار وهذه المعاني ، وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ﴾ (هود:٤٩) قاطعه في ذلك لا أشك في أن العرب حين سمعوا القرآن سمعوا معاني لا عهد لهم بها ، وأنها ليست من كلامهم ، وقد طالت ملابستي لشعرهم ، وكلامهم ، ولم أجد فيه كله معنى من معاني جملة قرآنية مثل : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:٢) وأفضل شعر العرب هي قصيدة قفا نبك ولا ينازع في ذلك من له دربة وممارسة لهذا الشعر ، وهي يوم عقرت للعذارى مطيتي ، ويوم دخل الخدر خدر عنيزة ، ويوم خرج بها تمشى تجر رداءها ، إلى آخر القصيدة لم تجد معنى من معاني القرآن قد طاف بأي جزء منها .

واعتقادي أن أهم نتائج لقياس الشعر الجاهلي على القرآن الكريم أو قياس القرآن عليه هو لإظهار هذا التفاوت الهائل بين أودية معاني الشعر ، ومعانى القرآن الكريم ، وأنه لو كان من كلامه عليه السلام لكان أشبه بكلام قومه ، لأننا لم نعرف إنسانا ظهر في الناس يتكلم بغير كلام قومه على هذا الوجه الذي نراه في القرآن مقارنة بالشعر ، ثم إن رسول الله ﷺ كان أحيانا يخاطب بعض من يلقاه ممن يدعوه للإسلام بمعان من القرآن ، ولم يقرأ عليه القرآن كان يستفتح كلامه بالحمد والثناء وشهادة الحق ومن العرب من آمن على ذلك .

روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده ، والنسائي في سننه ، عن ابن عباس قال : « إن ضمادا قدم مكة وكان من أزد شنوءة ، وكان يَرقي من هذه

الريح ـ أي من الجنون ومسِّ الجنون ـ فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إن محمدا مجنون ، وكان يعرفه فقال لو أني رأيت هـذا الرجـل لعـلّ الله يشـفيه على يدّي ، قال فلقيه ، فقال يا محمـد إنـي أرقـي مـن هـذه الـريح ، وأن الله يشفى على يدّى مـن شـاء فهـل لـك؟ فقـال رسـول الله ﷺ : « إن الحمـد لله نحمده ، ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل لـه ، ومـن يضـلل فـلا هـادى لـه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسـوله ، أمـا بعد . قال : فقال ضماد : أعِد عليَّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهن رسـول الله ﷺ ثلاث مرات ، قال فقال : لقـد سمعـت قـول الكهنـة وقـول السـحرة ، وقـول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغـن نـاعوس البحـر ، قـال فقال : هات يدك أبايِعْك على الإسلام فبايعه »[1].

وقد عقب الأستاذ محمود شاكر على هذا الخبر بقوله :

« إنه وصل بتذوقه إلى صميم الفرق بين كـلام صـاحبه بـالأمس ، وكـلام صاحبه في هذا اليوم ، وأسرعت به إلى البيعة على الإسـلام ، قبـل أن يسـمع كلام الله »، انتهى كلامه رحمه الله ، وضِماد ككتاب كان يعرف رسـول الله ﷺ قبل المبعث وكان صاحبا له .

لا شـك في أن معاني القرآن مـن أبـرز وجوه إعجـازه ، وإنمـا تجاوزهـا عبد القاهر في هذا النص ، وفى غـيره ، لأن الله سـبحانه وتعـالى لمـا طلـب منهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور ، أو بسورة من مثله ، خفف عنهم ، وقبـل منهم المماثلة في أي باب من أبواب المعاني يشاءون ، وليس في معانيـه لأن هذا تشديد عليهم في التحدي وكانوا قد راضوا بيانهم على أبواب من أبـواب

(١) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام صـ ٦١ .

المعاني برعوا فيها كالتشبيب ، والمديح ، والهجاء ، وكان بعضهم يكون أفضل من غيره في الباب الذي عرف فيه ، كالنابغة إذا رهب ، وامرؤ القيس إذا ركب ، يعني وصف الخيل ، وزهير إذا رغب ، وهزته المروءات ، وهكذا ، وقول الشيخ « أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه » ، يشير فيه عبد القاهر إلى وجه الإعجاز الذي جعل حياته في خدمته ، وبيانه ، وهو النظم ، ومعنى هذه العبارة أن صدورهم مفعمة بشعر لهم ، ولآبائهم ، بلغ الغاية في دقة التأليف ، والتركيب ، وبلغ الغاية في إفعام الكلمات ، والتراكيب ، بذخائر النفوس ، وودائع القلوب ، بلغ الغاية في الصقل والتثقيف وسعة المعاني ولكنهم مع هذا وجدوا في مزايا نظم القرآن ما ظهر ، وبهر ، وقهر ، ولابد أن تلاحظ أن كل موطن من مواطن الإعجاز يشير إليه عبد القاهر في هذا النص لابد أن يكون موطنا من مواطن الإجادة والصقل في الشعر لأن التحدي لا يكون إلا فيما برع فيه القوم ولم يتحد نبيّ قومه بباب من أبواب العلم ، لم يبلغوا فيه الغاية . ولا يعقل أن يقع التحدي فيما لا تقع فيه المفاضلة والمفاضلة تعني التجويد .

والأصل في مزايا النظم التي صادفوها وبهرت وقهرت هو كما قال الشيخ : أنهم وجدوا كلمات معدودة ، يأتي بعضها في أثر بعض ، فيها من المعاني ما لا يدخل في منن البشر ، ولا تستطيعه خواطرهم ، والأصل أن يكون هذا مما برعوا فيه ، يعني أن يكونوا قد برعوا في أن يأتوا بكلمات معدودة يأتي بعضها في أثر بعض بمعان غزيرة ، وكثيرة ، وأن هذا هو مناط فضل كلامهم ، لأنه هو أصل التفاوت ، وبه يفضل كلام كلاما .

وقول الشيخ : « وخصائص صادفوها في سياق لفظه » .

وقفت عند هذه الجملة كثيرا أتأمل صياغتها ، وما أراد الشيخ أن يودعه في هذه الصياغة ، وكلمة الخصائص تجري في كلام الشيخ ويراد بها هيئات المعاني ، وصورها ، وأن هذه الهيئات ، وهذه الصورة هي موضع صنعة صاحب البيان في بيانه ، وأنها من بنات الصياغة ، واختيار ضرب من العلاقة بين الكلمات دون ضرب ، لأن هذه الصور تتولّد من الإسناد ، والشعر الجاهلي له السَّبْق الأعْلى في هذا الباب ، ثم يأتي القرآن الكريم ويتجاوز هذا الحد الأعلى بما يقطع الأطماع ، وتستوي معه الأقلام في العجز ، واستحضر من الشعر الجاهلي أكرم ما تحفظ ، ثم انظر في قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ (آل عمران:٢٦) وتأمل هذا الأمر وما يفيده من عز الربوبية واستحضر المأمور به ، وهو اللهم مالك الملك ، والمأمور صلوات الله وسلامه عليه الذي يتلقى الأمر من ربه ليبلغه لكل خلقه ، وليقولوا جميعا اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وليتذللوا جميعا بكلمة اللهم ، ويتعبدوا بها ، وليشرفوا جميعا بالتضرع بها ، ثم تأمل المِنَّة والنعمة حين يفتح لنا ربنا باب رحمته بدعوتنا إلى أن نناديه ونقول اللهم ، فيسمعنا ، ويرفعنا ، ويصلنا ، ويسعى إلينا بأوسع مما نسعى إليه ، ثم تأمل الاسم الأعظم الذي أمرنا بأن ننادي ربنا به ، وهو سبحانه إذا دعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى ، ثم حذف حرف النداء ، الذي يجعلنا أكثر اتصالا بالاسم الأعظم ، وذلك بحذف الواسطة التي هي حرف النداء ، ثم تأمل حدود المعنى في قوله «مالك الملك» وهذا الإطلاق الذي يفيد أنه لم يشذ شيء عن ملكه فيما كان ، ولا فيما هو كائن،ولا فيما سيكون إلى يوم القيامة وإلى ما بعد يوم القيامة، لا في سماء ، ولا في أرض ، ولا في بر ، ولا في بحر ، ثم كيف يؤكد

إطلاق المشيئة بقوله سبحانه : تؤتي الملك من تشاء أنت لا من يشاء غيرك ، فلا مشيئة إلا بمشيئتك ، ثم لاحظ تكرار المشيئة ، وإطلاقها ، واقرنها بنظائرها من القرآن «يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء» ، لا يسأل عما يفعل سبحانه ، ثم راجع كلمة «تنزع» وكيف تفيدنا أن من أوتي الملك لا يؤخذ منه إلا انتزاعا ، وأنه لا يردُّه على من أعطاه ردا لا منازعة فيه ، ولا شك أنك كلما تأملت جملة تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء وتجد المعاني تتسع بطول تأملك ، تجد الكلام يقودك إلى نظائره ، تولج الليل في النهار ، وتولج النهار في الليل ، وأختها تخرج الحي من الميت ، وتخرج الميت من الحي ، وكل هذا مما يتسع معناه ، وتتجلى فيه الآيات البينات ، بالمراجعة ، والتدبر ، ولذلك أمرنا بأن نقرأ القرآن على مكث ، وأن نتدبره وأن نتلوه حق تلاوته ، وأكتفي بهذا لأن المحاسن لا تتناهى أو الخصائص التي تصادفها في سياق لفظه كما قال الشيخ لا تتناهى وحاول أنت أن تتعرف ، وأن تتغلغل ، وأن تدرك ، وأن تتذوق ، وهذا أبَرُّ بك وأسخى لمعرفتك ، من أن أحدثك على ما أدركت ، وتذوقت .

وقول الشيخ : «وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظه ومواقعها» .

ولم أعرف في الدراسة البلاغية التي رُبينا عليها كلاما كهذا شرحه الشراح ، ودققه المدققون ، وذكروا له شاهدا ، وذكروا ما يشبهه في الشعر ، والكلام إن وجدوا ، كما فعلوا في التقديم ، والحذف والقصر ، إلى آخره ، وإنما هذا وصف للأمر الذي بهر وقهر ، وليس شرحا له ، وواجبنا أن نحاول ، لأن

المعرفة الغامضة ليست من العلم ، وقصارى ما أفهمه من هذه الجملة أن علماءنا تكلموا في مطالع السور وخواتيمها ، أو بدائع مبادئها ، ومقاطعها ، وذكروا أن من بلاغة الكلام حسن مطلعه ، وبراعة استهلاله ، وتجويد هذا المطلع ، وتضمينه الإشارات إلى مقصود السورة ، وأنه أول ما يقرع السمع ، ثم التأنق في تجويد خاتمته ، لأن الخاتمة آخر ما يبقى في النفس وهذا مشروح ومدروس في الشعر ، والقرآن ، وله شواهد ، والشيخ عبد القاهر ينقل ما قيل في فواتح السور وخواتيمها إلى فواتح الآيات ، وخواتيمها ، ولم يتكلم عن مطالع السور ، لأنه كان يحدثنا وهو متغلغل في السور يبحث فيها عن الشيء الذي راع ، وبهر ، في أي موقع فيها ولابد أن يكون من المعلوم للقوم ، وأن يكون مما جوّدوا فيه ، وهذا وحده علم من علوم البلاغة ، والإعجاز ، لم يُحط به بعدُ ، ولم تحكمه دراسة العلماء ، ولم تطرِّق طرقه مباحثُهم ، وهو مما تركه الأول للآخر وله نظير في دراسة الشعر ، ولم أعرفه إلا عند حازم[1] القرطاجني كتبه في فصل من أجود ما كتب سماه إحكام مبادئ الفصول تكلم فيه عن إحكام مطلع القصيدة ثم تقسيمها إلى فصول ، وإحكام مطلع كل فصل ، وأن البيت الأول من كل فصل هو بمثابة الرأس للفصل كله ، ثم إحكام خاتمة الفصل ، وذكر مذاهب الشعراء في هذا وهذا قريب جدا مما قاله عبد القاهر في هذه الجملة ، أعني بدائع المبادي والمقاطع للآيات وهذا كله يجب أن يدرس ، وأن نجرّبه على الشعر كله ، وعلى القرآن الكريم ، وأن يكون علما يتوارثه الخلف عن السلف .

---

(١) هناك إشارات مهمة في الكتب التي كتبت قبل عبد القاهر وقبل حازم وأبرزها إشارة لابن طباطبا قال فيها (الابتداء بذكر ما يعلم السامع له إلى أي معنى يساق فيه وذكر أبيات النابغة « إذا ما غزوا»)

ولا أقول إنى أبدأ الكلام في هذا ، لأني أتهيّبه والذي عندي فيه هو الذي عند كل قارئ للقرآن ، يحاول أن يستجلي محاسنه ، وكلّهُ محاسن ، وأن يتذوق فرائده وكله فرائد .

وسأذكر أمثلة لمبادئ الآيات التي هي أظهر في أنها تحرك وتروع ، منها الآيات التي ابتدأت بالنداء كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (النساء:١).. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾ (التحريم:٨).. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ (التحريم:٧).. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (الأحزاب:٤٥).. ﴿ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا ﴾ (هود:٤٨).. ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (النمل:٩). . ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (القصص:٣٠). . ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (ص:٢٦) . . ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾ (سبأ:١٠) وتأمل هذه الصور وتعمق في معانيها ، والمعنى الذي جاء بعد النداء ، وقد قالوا إن الله سبحانه وتعالى ما نادى عباده إلا لأمور عظام .

وتأمل أيضا الآيات التي ابتدأت بكلمة هل كقوله تعالى : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾ (الغاشية:١) ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴾ (البروج:١٧) . . ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ ﴾ (ص:٢١) . . ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ (النازعات:١٥-١٦) .

وكان أبو بكر بن الطيب يقول وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل ، والله سبحانه وتعالى وهو العليم بكل شيء يسأل نبيه صلوات الله وسلامه عليه ويقول له هل أتاك كذا ، استعظاما لهذا الذي أتاه ، وأنه لا سبيل إلى

علمه به إلا وحي الله إليه ، وأن حديث الجنود وفرعون وثمود ، ونبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، وموسى إذ رأى نارا ، وموسى إذ ناداه ربه من شاطئ الوادي الأيمن ، كل هذا بكل هذه التحديات ما كنت تعلمها أنت ولا قومك ، وهي منا لك آيات بينات منة عليك وعلى أمتك ، ونِعَمٌ منا سابغات .

وتأمل الآيات المبتدأه بكلمة تبارك كقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ (الفرقان:٦١) . . . ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ (الفرقان:١٠). . . ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ (الفرقان:١) ... ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ (الملك:١)، ومعناه تعالى وتقدس ، وتأمل ما يأتي بعدها وكيف يكون تقوية وترشيحا للتقديس ، والتعالي ، ثم تأمل المقاطع التي تنتهي بهذه الكلمة اقرأ هذه الآية بسكون طائر وخفض جناح كما كان يقول الباقلاني « ثم تبين ما يقع في نفسك : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ »(الأعراف:٥٤) .

راجع هذه الكلمات الأخيرة وكررها حتى تجدها في قلبك وأقول لك كما قال أبوبكر بن الطيب أي خاطر يتشوف إلى أن يقول : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين).

كلمة تبارك لا تجدها في القرآن إلا مفتتح حديث عن القدرة الباهرة أو مختتم حديث عن ذلك ، اقرأ قوله تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾(المؤمنون:١٤).

وهكذا إذا قرأت وفى نفسك التعرف على مبادئ آياته ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وأنا أكف القلم عن كتابة ما أجده في هذه الشواهد لأنه ليس ثمرة علم ، وإنما هو ثمرة تكرار لها ، ، وتدقيق في معانيها وتركيز شديد في دلالاتها ، وألفاظها ، وصفائها ، وعمقها ، وسعتها ، وجلالها وصدورها عن عزّ الربوبية .

وتأمل هذه الآيات : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق:٣٣) مبدأها من خشي الرحمن بالغيب ، ومقطعها وجاء بقلب منيب ، تأمل وصفها لرحلة حياة رجل صالح عاش يخشى الرحمن بالغيب ثم جاء ربه بقلب منيب ، هل قرأت كلاما كهذا ثم راجع قوله سبحانه في سورة فصلت : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت:١١) تأمل المطلع ثم استوى إلى السماء . . والمقطع أتينا طائعين ، وما بينهما من عز الربوبية ، هل تجحد في الشعر مثل هذا؟ وقوله جل شأنه : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق:٣٤،٣٥) ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ (ق:٤١،٤٢) وتأمل المشابهة بين ذلك يوم الخلود ، وذلك يوم الخروج : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ » (ق:٤٤).

وكل القرآن كذلك وإنما دللتك على مثال وشاهد ، ونحن في حاجة إلى تفسير يقوم على بيان مطالع الآيات ومقاطعها ، وفى حاجة إلى بحوث واجتهادات ودربة لاستخراج ودائع هذا الكنز العظيم .

وقول الشيخ في النص الجليل الذي يربط إعجاز القرآن بالشعر الجاهلي وثقافة أهله ورؤيتهم لبيان القرآن وهو أيضا ما أدركوا أنه بهرهم وقهرهم

قال الشيخ : (ومساق كل خبر) وكما أن كلمة مبادئ آية ومقاطعها تفتح بابا من أبواب البحث الجديد ، في بلاغة القرآن العظيم كذلك هذه الكلمة ، وذلك لأن الشيخ لم يذكر أن الذي أعجزهم إخبار القرآن عن الأمور الغيبية ، مع أن ذلك معجز لا محالة ، وكذلك أخبار الأمم الماضية ، وهو أيضا معجز لا محالة ، وقد رأينا القرآن يشير إلى ذلك ، وهذان الأمران هما طرفا الخبر القرآني ، لأن الخبر إما أن يكون إخبارا بماض ، أو بمستقبل ، والشيخ عبد القاهر حين ذكر مساق الخبر إنما أراد طريق بيانه ولم يرد الخبر عينه ، كما هو مذهبه في الإعجاز ، وأنه النظم والتأليف والبلاغة التي عبر بها القرآن عن المعاني ، وليست المعاني . وهذا هو معنى المساق .

وقد راجعت كثيرا من مساقات أخبار القرآن العظيم ووجدت فيها ما يفتح بابا جديدا في أبواب بلاغة القرآن عنوانه هو هذا الذي قاله الشيخ .

ودونك مساق من مساقات أخباره ، وليكن خبر أم موسى عليه السلام ، تأمل كيف صور القرآن موقفها لما التقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه ، تأمل الكلام كلمة كلمة لأن ما فيه لا يستطيع قلم أن يقذفه في قلبك ، وإنما ابحث عنه أنت لتجده ، قال سبحانه : ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ﴾ (القصص:١٠) تأمل هذه الكلمات راجع فؤاد أم موسى فارغا ، وفَرِّغَ عقلك ، ولبك لها ، وحاول أن ترقم هذه الصورة في فؤادك ، أنت ، وكيف تتصور وقع الحدث على فؤاد أم موسى ، وكيف أصبح فارغا ، ثم تأمل ﴿ **إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ** ﴾ تأمل كلمة (كادت) و(تبدي) والجار والمجرور «به» ثم تأمل «ربطنا على قلبها» هل رأيت مثل هذا المساق مع أن الشعر الجاهلي كله قائم على مساق الخبر ، فليس الطلل إلا خبرا ،

وليس الوقوف عليه أصيلانا أسائله إلا خبرا، والنابغة يقف يسأل عن آل نُعِمْ، كل الشعر أخبار ، فهل رأيت مثل «فأصبح فؤاد أم موسى فارغا»؟ وهل رأيت مثل «إن كادت لتبدى به» وأعلم أنى أقلب الكلمة بلساني زمنا بعد زمَان ، حتى أجد مذاقها ، ولكن هذه الكلمات لا تحتاج مني إلى زمن ، احذر أن تستحسن لأن غيرك استحسن لأنك بذلك تغيب نفسك عن كلامك وهذا تدمير إن فعلته ، راجع قول أم موسى في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ** ﴾ (القصص:١١) وتأمل كلمة «قصيه» وأن أم موسى قالت فقط قصيه ، وكأنها أمْسكت لسانها حتى لا تبدي به فاكتفت بكلمة واحدة ، وكأنها أسَرَّتها لا بِنْتِها في أذنها ، وقُصِّيه من القصة ، ومعناها تتبعيه حتى لا يُفلت منك شيء من شأنه ، وإن صَغُر ، وقد أدركت أخت موسى مراد الأم فبصرت به عن جنب ، وتأمل هذه الكلمة العجيبة «بصرت به عن جنب» وكأنها زاوجت بين البصر ، والبصيرة ، فرأت ، ووعت ، وكلمة عن جنب وحدها آية في البلاغة ، والدقة ، في وصف الخبر .

راجع ذلك وراجع نظائره لتفهم قول الشيخ ومساق كل خبر ، واحذر أن تكتفى بقراءة كلمة الشيخ لأنه يحدثك عما وجد ، ويجب أن تدخل أنت هذه التجربة ، وأن تقلِّب بلسانك ، وفؤادك ، كل لفظ ، وكل خبر ، حتى تجد ما بهر في مساق الخبر ، وما قهر .وأنا أعيذك من أن تكرر كلام الذين استحسنوا من غير أن تستحسن سواء كنت في شعر أو في نثر .

راجع أنت واجتهد في أن تقلل الوسائط بينك وبين ما تدرسه راجع كلمة امرأة فرعون «قُرّة عين لي ولك لا تقتلوه» وكرر كلمة « قرة عين» ومعنى قولنا في الدعاء «أقر الله به عينك» وكيف أرادت هذه الصالحة البرة أن تعطف قلب فرعون الجبار نحو هذا الطفل ، فقالت (ولك) ثم راجع قولها

فيما ساقه القرآن خبرا عنها في سورة التحريم : ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ (التحريم:١١) والعارف بالله حين يقول ابن لي عندك بيتا في الجنة ، يتجه قلبه إلى ما وراء ذلك من الهداية إلى العمل الصالح الذي هو سبيل إلى بيت الجنة عند الله ، والذي يسأل الله الفردوس الأعلى إنما يسأله سبحانه الهداية الأعلى إلى العمل الصالح الأعلى الذي به يكون من الوارثين ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ، وقولها : «ونجني من فرعون وعمله» ناظر إلى هذا المعنى الذي قلته ، لأن عمل فرعون مضاد لعمل الوارثين الذين يرثون الفردوس ، وتخشى هذه الصالحة أن تنزلق إلى عمل فرعون ، وهي الخليطة له ، والمعايشة له ، وتعجب لقوة إرادة هذه المرأة ، وقوة إيمانها ، وكيف يحتفظ صاحب الإيمان ، وصاحب الإرادة ، وصاحب العزيمة في الله ، بما يقربه إلى الله ، ويكون له بيت عند الله في الجنة ، وهو يخالط فرعون الجبار ، أعدى أعداء الله الذي يقول لكل من حوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص:٣٨) ولهذا ضرب الله مثلا للذين آمنوا ليحتذي به من تزعزعه الأهواء وتزيغ بقدمه، ويعتذر بضغط الظروف.

ثم راجع مساق خبر موسى عليه السلام لما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، ووجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، وكيف دل مساق الخبر على أن أبناء يعقوب عليه السلام ، لما أدخلهم نبي الله يوسف مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع يعقوب عليه السلام على عرش مصر ، تغيرت أحوالهم ، وكونوا عصبيّة ، وصاروا عصابة ، وكفروا النعمة واتخذوا ممن استضافوهم عدوا لهم ، وأن العداء بينهم وبين المصريين عداء قديم ، وسببه أن شعب مصر أول شعب من شعوب الأرض أحسن

إليهم ، ثم راجع ما وقع فيه موسى عليه السلام وكيف ساق القرآن هذا الخبر : ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (القصص:١٥) تأمل الإيجاز البالغ في كلمتى «فوكزه موسى فقضى عليه» ثم تأمل توبة موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ (القصص:١٦) وقابل الإيجاز في فوكزه موسى فقضى عليه بالإيجاز في ﴿ فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ ثم قابل مساق هذا الخبر بمساق نظيره ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ (القصص:١٨) راجع كلمة يستصرخه وقابلها بكلمة «فاستغاثه» التي في الخبر الأول وأن كلمة استغاثه فيها معنى أن هذا الإسرائيلى مظلوم لأن المستغيث هو طالب الغوث لرفع الظلم ولهذا أغاثه موسى عليه السلام ولم يزد كليم الله على أن وكز المصرى ، وهذا بخلاف «يستصرخه» لأن الصارخ ليس نصا في المستغيث وإنما هو للمغيث أيضا ، والصارخ لا يلزم أن يكون مغلوبا ، بخلاف المستغيث فإنه طالب غوث ، ثم تأمل ملاءمة كلمة«أراد أن يبطش» وكيف جاء البطش مع المستصرخ ، والوكز مع المستغيث ، وإنما أراد كليم الله البطش ولم يبطش ، ثم تأمل قول المصري لكليم الله : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (القصص:١٩) وهذا فهم المصري وتفسيره لموقف سيدنا موسى عليه السلام ، ووراء هذا الفهم فيما أفهم أن ثمة إحساسا كان عند المصريين أن بني إسرائيل وهم أعداء اليوم وضيوف الأمس كانوا ينازعونهم ملك مصر ، لأن الجبار من معانيه الملك ، وتجد ما يؤكد هذا في مساق خبر آخر عن فرعون حين قال في بني إسرائيل : «**وإنهم لنا لغائظون**» وكأن وراء كلمات مساق الخبر في قصة اليهود في القرآن تاريخ لم يدرس ولا أطيل وإنما أفتح الطريق لسالكيه .

وقول الشيخ عبد القاهر : «وصورة كل عظة» باب أوسع من كل الذي مضى ، لأن صورة العظة تخلّلت كل آيات القرآن في كل أغراضه،ومقاصده، ولها في آيات التشريع مواقع بالغة الإصابة ، وبالغة الدقة ، وترى معنى الموعظة يخالط السياق مخالطة فيها من الشفافية ، والوعي بالمقصود والإغراء به ، والتحذير من خلافه ، ما يُمتْع المتأمل ، ويهديه إلى دقائق أسرار لا يتصور وجودها بهذا الثراء ، وهذه الدقة في أي كلام آخر .

والقرآن مليء بهذا وأقول كما قلت سابقا إن باب مواقع العظة في السياق القرآني باب يطوي من الأسرار والدقائق الكثير ، وهو لم يدرس على الوجه الذي يتلاءم مع سخائه وثرائه ، وفى حاجة إلى دراسة مستقلة . تأمل مثلا آية البقرة التي رفع الله فيها الجناح عن التعريض بخطبة المتوفى عنها زوجها : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ (البقرة:٢٣٥) .

الشاهد هو الكلمتان الأخيرتان . ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ وكررها وتأملها حتى تجدها وتجد فيها الآية وأنت مكلف بذلك فهو في طوقك . والتعريض كلام يجريه الرجل في خاطره ثم يخاطب به المتوفى عنها زوجها وقد تغلبه نفسه ويغلبه هواه وتغلبه رغبته فيشوب التعريض بشوب من التصريح فيقع فيما نهى الله عنه ، وهذا شأن يكون في باب المسارة والمكاتمة ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ وأنك مهما أخفيت وراوغت واستترت وأومأت فإن كل ذلك معلوم عند من يحاسبك ومن نهاك وكفك ، وتقديم الأمر بالعلم في قوله

سبحانه «واعلموا» له شأن أي شأن وفيه من التهديد والتخويف ما فيه ، ثم قوله الصريح الواضح «فاحذروه» وليس في التخويف والتهديد والزجر أشد وقعا على قلب من يخشى الله بالغيب من جملة «فاحذروه» لأن من غاب عنه الحذر والخوف من الله في هذا المقام قد تَزِلُّ به القدم لأن هذا من مواطن الزلق ، فلتعظم الخشية فيه ، وليعظم الحذر فيه ، حتى تقدع الخشية ويقدع الحذرُ أهواء النفس .

وقلما تجد أمرا من أمر الله أو نهيا من نهيه سبحانه إلا وهو مقرون بمثل قوله جل شأنه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (البقرة:٢٢٩) . . ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ (الطلاق:٢) . . ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ (البقرة:٢٣١). . ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ﴾ (البقرة:٢٢٣). . ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ (الممتحنة:١٠). . ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (البقرة:١٩٧). . وهذه تشبه كلمة فاحذروه وهو من أشد كلام الله وقعا على القلوب وقرعا للأكباد . . وبعد .

فإن الشيخ عبد القاهر يؤكد أنه شرح كل هذه الغوامض ، أو وضع الأساس لشرحها وبيانها ، كما شرح كلام العلماء في البلاغة ، والذي وصفه بأنه كالرمز والإيماء ، والإشارة في خفاء ، كل ذلك بضربة واحدة ، أو بَخَفْقَة برق واحدة ، أضاءت كل جوانبه وذلك حين هُدِي إلى النظم ، وتوخى معاني النحو على وفق الأغراض والمقاصد ، وهو على صواب فيما قال وأن هذا الأصل يكشف كل غوامض الشعر والبيان ، والإعجاز بشرط أن يكون مفهوما على وجهه الصحيح ، الذي كرر الشيخ بيانه ، وأن يكون أداة في يد خبير طالت ممارسته للكلام ، وأحكم سننه ، وطرائقه ، حينئذ يستطيع الاهتداء بهذا النجم وأن تكون استضاءاته به راجعة إليه بمزيد من التفصيل ، ومزيد

من الوعي بجوهر صياغة الكلام ، وحسن تأليفه ، لأن هذا المفهوم الجليل الذي هو النظم كغيره من أصول المعرفة إنما يستضيء هو نفسه بمقدار ما يضيء ، ويستفيد هو بمقدار ما يفيد ، ويزداد صقلا كلما ازداد الواعى الخبير اليقظ به توغلا في أدغال البيان ، وبهذا تتراحب المعرفة ، وتربو في يد من هم من أهلها ، وإذا قلنا إن عبد القاهر أزال كل هذا الغموض بتجليته وإصابته لمفهوم توخي معاني النحو وفق الأغراض فإنما نريد أنه وضع الأصل الذي لا ينقضه من له بصيرة ، وأبان عن الطريق الذي يهدي من يهتدي ، ويجب أن يربو هذا الأصل في مباحث كل عالم بمقدار وعيه ، وبمقدار يقظته ، حتى إذا صادف من هو من طبقة عبد القاهر يكون قد صادف من يضيف إليه ، مقدار ما أضافه عبد القاهر .

شرحت هذا النص وأنا أتكلم في مسألة الشعر الجاهلي والإعجاز وقلت في وجه ذلك إن عبد القاهر فيه يتكلم عن رؤية أصحاب هذا الشعر للذى أعجزهم في هذا البيان الذي أنزله الله عليهم ، وأن هذه الرؤية لا تنفصل عن هذا الشعر لأن الشعر كان منها وهي كانت به وأن عبد القاهر يحدث بحدسه عن الذي راع وبهر وقهر أصحاب هذا الشعر .

* * *

ومن تمام الكلام في الشعر والإعجاز أن أتكلم في الوجه الآخر لهذه القضية ويمكن أن أعكس ترتيب الكلمتين وأقول الإعجاز والشعر الجاهلي ، وكما أنه لا يفهم الإعجاز بمعزل عن الشعر الجاهلي كما قال عبد القاهر ، كذلك لا يفهم الشعر الجاهلي بمعزل عن الإعجاز كما قال شيخنا محمود محمد شاكر رحمه الله ، وقد رأيت كلاً يؤكد ما يقول .

الشيخ عبد القاهر يرى من المحال أن تفهم الإعجاز عن غير سبيل الشعر الجاهلي ، والشيخ محمود شاكر يرى أن حادثة نزول القرآن لا تعزل عن دراسة الشعر الجاهلي ، ومن عزلها فقد عزل العصر الجاهلي عن أحداثه ، والناس الذين صنعوا الأحداث ، وصار يتكلم محض تكلم ، ويدرس عصرا في غيبة الناس والأحداث ومن الغريب أن الأستاذ محمود شاكر وهو يتكلم عن هذا الذي هو بلا شك الوجه الثاني لكلام عبد القاهر لم يشر إلى كلام عبد القاهر وأقطع أنه لم يكن حاضرا في نفسه ، وإلا لذكره لأنه يتشدد جدا في الرجوع بالعلم إلى مصادره ، وإنما هداه إلى هذا ما سماه محنة الشعر الجاهلي ، وما رصده من فساد في حياتنا الأدبية ، والربط بين الكلامين ربط ظاهر جدا . عبد القاهر من القرن الخامس يقول في الناس محال أن يفهم الإعجاز بمعزل عن الشعر الجاهلي ، والأستاذ محمود رحمه الله يقول محال أن يفهم الشعر الجاهلي بمعزل عن الإعجاز ، وهذا هو الذي دعاني إلى الربط بينهما ودمجهما في موضوع واحد هو الشعر الجاهلي والإعجاز .

وقد كتب الأستاذ محمود شاكر هذا منذ ثلاثين سنة وألقاه محاضرة في جامعة الإمام محمد بن سعود سنة ١٣٨٥هـ ١٩٧٥م ونشر في مجلة العربى وكان مدخل الأستاذ محمود شاكر لهذه القضية هو أن الله سبحانه وتعالى لما ابتعث محمدا رسولا نبيا لم يجعل له آية على نبوته كآيات الأنبياء السابقين ، وإنما أتاه آية واحدة هي كتاب الله ، الذي أنزل عليه ليقرأه على الناس على مكث ، وطالب قومه الذين يسمعون ما يتلوه عليهم أن يؤمنوا بأن هذا الكلام العربي المبين ، هو كلام الله «وأنه وإن كان جاريا على أساليب لغتهم ، فإنه مفارق لكلام البشر بدليل ظاهر قاهر هم قادرون على تبينه ، واستظهاره»[1].

(١) قضية الشعر الجاهلي صـ ٩٤ .

والله سبحانه وتعالى لم يطالبهم بذلك ، ولم يحاسبهم عليه ، ولم يكلفهم به ، إلا وهو يعلم أنهم قادرون على ذلك ، وأن هذه القدرة عامة فيهم ، في الكبار والصغار ، والرجال ، والنساء ، والعبيد ، والأحرار ، وكل من كان على أرض العرب من العرب وغير العرب .

ولم ترد الأخبار بأن صغارهم سألوا كبارهم في هذا الشأن ، ولا أن عبيدهم سألوا أحرارهم ، ولا أن نساءهم سألوا رجالهم ، وإنما الكل كان يسمع ، ويعي ، ويعقل ، ويرى ، وأنهم جميعا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويرون آية الله فيما يتلوه محمد ﷺ عليهم كأنها عمود الصبح ، .آمن من آمن على الحق الذي رآه ، وعارض من عارض لصوارف أخرى لا لنقص في الدليل .

ويشير الأستاذ شاكر إشارة ثانية مهمة جدا وهي أن الله سبحانه وتعالى لما طالبهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله ، لم ينصب لهم حكما يحكم بين ما يأتون به ، وبين القرآن ، وإنما فوّض هذا الأمر إليهم ، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم مع كفرهم ، وعنادهم ، ولجاجتهم ، لا يخونون أمانة البيان ، ولا يحيدون عن العدل في شأنها ، وذلك لعموم علمهم بوجه الحق فيها ، ومن حاد منهم عن ذلك أخذ عليه ، وعيب به وكان العربى يكره أن يأخذ عليه قومه نقيصة أو غميزة أو خسيسة .

وهذه الحقائق الشائعة والدائرة في الكتب وقف عندها الأستاذ محمود شاكر واستخرج منها أصلين عظيمين .

الأصل الأول : أنه غير ممكن أن تكون هذه القدرة على تمييز البيان على هذا الوجه الذي طالبهم به خالقهم قد نشأت زمن النبوة ، وإنما لابد أن تكون

ثمرة أزمنة ، متطاولة ، شغف فيها القوم بالشعر ، والبيان ، وراضوا أنفسهم في الوقت كله على مراجعة الأبنية اللغوية ، البارعة ، في شعرهم ، وشعر من قبلهم ، حتى انتهى بهم هذا الشغف ، وهذه الرياضة على تحصيل القدرة التي جعلها ربنا تبارك وتعالى في نفوسهم حكما ، لا يخطئ الفصل بين الكلام الذي هو آية ، والكلام الذي ليس بآية .

ولابد أن يكون هذا الجيل الذي جعله الله سبحانه وتعالى قائما مقام أجيال البشرية كلها في هذا الشأن قد بلغ في القدرة على تمييز صنوف الكلام مبلغا لم يبلغه جيل قبله ، ولن يصل إليه جيل بعده ، وأن يكون بيانهم الذي كان مقصودا بالتحدي بيانا قد بلغ غاية ما يبلغه بيان الناس عربا وغير عرب .

والأصل الثاني: هو أنه لا يكون هذا إلا وفى أيدى القوم شعر قديم عتيق، موغل في القدم ، وشعر أقرب إلى زمانهم ، وهذا الأصل يرجع إلى الأصل الأول لأن القدرة على التمييز التي تأسس التكليف بالإيمان عليها لا تكون إلا بمزاولات طويلة لشعر مختلف متنوع .

قال الشيخ رحمه الله :

« وهذا التذوق العام الذي كان فيهم حين نُزِّل القرآن يهدينا كونه إلى أصلين عظيمين لا انفكاك له منهما .

أولهما : أنه غير ممكن أن يكون نشأ فيهم ابتداء عند نزول القرآن ، بل هو نتيجة دهور متطاولة من تذوق البيان في أوسع نطاق من التنوع ، وأشمله ، وعلى أعلى درجة من دقة الإحساس بالأبنية اللغوية المختلفة ، التي أتيحت للبيان الصادر عن الإنسان في جميع لغات البشر .

وثانيهما : أنه لا يمكن أن يكون كان الأمر على هذا الوجه عند تنزيل القرآن إلا وفى أيدي الناس وفى نفوسهم ، أمثلة حية كثيرة ، متنوعة عتيقة جدا ، متداولة بينهم ، وأمثلة أخرى مُحدثة عتيدة ، ذائعة بين الناس ، على اختلاف درجاتهم ، لا يكفون عن تتبعها ، وتذوقها ، وعن المقارنة بين قديمها ، ومحدثها باهتمام ، وحرص وشغف غالب ، يصقل التذوق صقلا حتى يبلغ هذه الغاية »[1].

وهذا الكلام يؤكد أمرين ، الأول : أن الجيل الذي تلقى القرآن هو أقدر أجيال البشر على التمييز في شأن البيان ، والثاني : أن بيانه أرفع ما أصابت وتصيب ألسنة الناس عربا وغير عرب .

وهذان لم يخالف فيهما أحد ، وقد سبق بيانه عند عبد القاهر ، والجاحظ ، وهو حقيقة قائمة في تراثنا كله ، لم يغفلها الناس حتى جاءت ثقافة عصر الاستعمار فاضطرب بها كل صواب كما بينا .

ويشير الشيخ شاكر إلى أن إغفال هذه الحقيقة التي لا نظير لها في تاريخ البشر ، وعدم الاعتداء بها في دراسة الشعر الجاهلي ، تُفضى بنا إلى دراسة العصر الجاهلي في غيبة العصر الجاهلي .

يقول رحمه الله :

« ونحن لا نستطيع بل لا يجوز لأحد عاقل أن يسقط هذه الحقيقة من الدراسة الأدبية ، لأن معنى إسقاطها من الدراسة هو عزل حقيقة في عصر بعينه عن عصرها ، وعن أصحابها ، ثم دراسة هذا العصر مجردا من الناس

---

(١) قضية الشعر الجاهلي صـ ٩٥ .

الذين كانوا فيه ، والذين كانت هذه الحقيقة قائمة فيه بهم ، وفيهم ، ولو فعلنا لكان معنى ذلك أننا ندرس عصرا فارغا من أهله من البشر ، وهذا عبث فارغ بل جهل ، بل هو جنون مطبق على الأصح »[1].

ويشير الأستاذ إلى أن غير المسلمين معذورون حين يعزلون هذه الحقيقة في دراستهم للشعر الجاهلي ، لأن هذه حالة فريدة في تاريخ البشر ، لا يؤمن بها إلا من آمن بأن القرآن كلام الله ، وأنه آية نبيه ﷺ ، وأن الذي نزل فيهم أقروا بذلك وآمنوا عليه ، وهذا جزء من عقيدتنا ، وجزء من تاريخنا ، وحقيقة من حقائق هذه العقيدة ، وهذا التاريخ ، وإهماله في الدرس لا وجه له إلا واحد من أمرين :

الأمر الأول : هو أن يكون حقيقة اعتقادنا أن هذه الحادثة لم تحدث على الوجه الذي يحدث به أصحاب الديانة ، وأن القرآن ليس كلام الله ، وإنما هو كلام محمد ، وأنه كان مصلحا فذا ، وقائدا سياسيا فاق الناس ، وأن سلفنا رأى من المصلحة أن يُلبس حركته السياسية ثياب الدين ، والوحي ليجتمع الناس حوله ، وينطلقوا باسم الفتح لسلب أموال الأمم ، والاستيلاء على الممالك وإقامة حكم عربي .

وهذا هو تفسير تاريخنا عند غيرنا ممن لم يؤمن برسالة محمد ﷺ من العرب وغير العرب ، ونحن حين نغفل هذه الحادثة التي هي جزء من عقيدتنا ونتكلم عن العصر الجاهلي بمعزل عنها نكون قد سلكنا سبيلهم وصار هذا ظاهر أمرنا وباطنه .

---

(١) قضية الشعر الجاهلي صـ ٩٥ .

والأمر الثاني : هو أن نكون مؤمنين بأن هذه الحقيقة العظيمة قد وقعت ، وأن القرآن كلام الله ، وأن محمدا ﷺ نبي الله ورسوله ولكننا عاجزون عن تحليل أحداث تاريخنا ، وعاجزون عن تحليل وثائق هذا التاريخ .

هذا ملخص كلامه رحمه الله وهو من الخطورة بمكان كما ترى ودَمْغ لنا بإحدى بائقتين الأولى مهلكة ، والثانية مُذِلّةٌ .

ولهذا سأسوق نص كلامه وإن طال .

قال رحمه الله :

« كان نزول القرآن حادثة فريدة في تاريخ البشر ، لم يكن له شبيه في تاريخ الأمم ، ولا في تاريخ الأنبياء صلوات الله عليهم ، ولن يكون لها شبيه ، وهي حادثة باقية على الدهر ، ببقاء القرآن متلُوا بين الناس ، ولذلك فترك النظر في شأنها ، وفى النتائج المترتبة عليها ، وعزلها عن الدراسة الأدبية ، والتاريخية ، عزلا تاما ، كما هو واقع بيننا اليوم في دراسة الأدب ، والتاريخ ، لا يتأتى أن يكون مفهوما إلا في حالتين ، فإما أن تكون حقيقة رأينا أن ننكر إنكارا صريحا قاطعا أن هذه الحادثة الفريدة قد وقعت على هذا الوجه الذي نعرفه ، وأن يكون اعتقادنا الخفى هو أن كل ما يقال عنها باطل لا أصل له ، وإن كان أصحاب الديانة إنما يذكرونه لتثبيت العقيدة في القلوب لا غير ، وإذا لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة أخرى كمعجزات سائر الأنبياء طولب العرب بنبوته على حدوثها على يديه فمآل الأمر في هذه الحالة هو أن هذا الكتاب ليس كلام الله سبحانه ، بل هو كلام مصلح عبقرى ، عظيم ، كسائر المصلحين ، وإن فاقهم جميعا ، وأن العرب لم يؤمنوا بأنه نبي رسول إلا على هذا المعنى وحده ، وإذن فكل ما يقال عن إعجاز هذا

الكتاب ، وتحدّيه للعرب ، وغير العرب ليس صحيحا ، وأنهم لم يكونوا عاجزين عن الإتيان بمثل نظمه ، وبيانه في لسانهم ، بل كانوا قادرين على ذلك ، ولكنهم أعرضوا عن معارضته لأنهم سلموا تسليما ما أن اتباع هذا المصلح العبقري العظيم هو أوفق لهم ، وأنفع ، فرأوا الخير كله في اتباعه ، فأعرضوا عن الاستجابة لتحديه ، طمعا في مجد أمَّلوه ، وذكر باق عند الناس توقعوه ، ورجاء أن تكون لهم على أهل الأرض الغلبة بسلطان هذا الكلام الذي جاءهم به .

هذه هي الحالة الأولى :

وإما أن تكون حقيقة أمرنا اليوم أننا في حالة مستعصية من العجز عن فهم التاريخ ، مع إيماننا بأن هذا كلام الله سبحانه ، وفى جهل فاضح يمتنع معه أن نكون قادرين على تحليل الوثائق التي هي تحت أيدينا تحليلا بصيرا ، ذكيا ، مقنعا ، يعين على وضوح التفاصيل ، وربط بعضها ببعض ، ويُتيح لنا رسم صورة صحيحة للقوم الذين نزل عليهم ، وآمنوا بأن هذا القرآن كلام الله المباين لكلام البشر ، ثم ما يتبع ذلك من رسم صورة صحيحة للعصور التي تلي هذا العصر ، عصر التابعين ، وعصر تابعي التابعين ، وهكذا إلى يوم الناس هذا .

هذه هي الحالة الثانية وكلتا الحالتين أخبث من أختها ، وأخزى»[1].

هذا النص الطويل وضعته بين يديك لخطورة ما يتضمنه ، فإن قبلته فعليك أن تراجع كل ما يكتب عن الشعر الجاهلي ، والنقد في العصر الجاهلي ، وأنت تقرأ عنه ما أقرأ من أنه شعر مادي ، وحسِّي ، وساذج ،

(١) قضية الشعر الجاهلي صـ ١٠٢، ١٠٣ .

وشبقي وليس بين أبياته رابط ، وأن النقد في العصر الجاهلي ساذج أيضا ، وانطباعي أيضا ، وأن النقد بدأ يزدهر بترجمة علوم اليونان ، وخاصة كتاب الشعر لأرسطو ، الذي كان كتابا مباركا في البلاغة والنقد ، وكان كتابا أيضا مباركا على الشعر ، فقد أخذ الشعر طريقه نحو النضج بداية بأبي تمام الذي نالته البركة لصداقة كانت بينه وبين الكندي ، الذي ضمّخت الفلسفة اليونانية عقله فوجد أبو تمام ريحها من مجالسته ، وهذا الذي تظن أني أكتبه ساخرا مكتوب في كتب الرواد صغارهم وكبارهم ، كل هذا في غيبة الوعي بهذه الحقيقة التي يحضرها لك هذا النص الكريم .

الكلام الذي أسوقه لك في غيبة هذا النص دخل علينا من كل باب ، ودخل كتب المدارس الثانوية ، ويربّي أبناؤنا عليه ، وردّدَه الصغير والكبير ومن له لحية ومن لا لحية له .

وإذا لم تقبل هذا النص فلك ما ترى بشرط أن تأتي بوجه ثالث مقبول يبرر إغفال ذكر هذه الحادثة حتى لا نقع معك في الأخبث والأخزى .

ومما يجب أن يراجع أيضا القول بأن تمييز هذه الطبقة لطبقات الكلام كان أمرا فطريا بحتا ، لأن التاريخ الذي ساقه الشيخ وشرحه شرحا أوسع مما اقتبسناه منه يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا يزاولون تذوق الأبنية اللغوية العالية في ليلهم ، ونهارهم ، بحب وشغف ، وأنهم كانوا يستقبلون الشعر استقبال الحفاوة ، والشغف ، واللذة ، والبهاء ، والخيلاء ، كما قال ، وأنهم كانوا يتأملون الشعر ويستعيدونه ويكررونه حتى يزداد استنارة ، ولألاءً مع كل قلب ، وكل لسان أيضا .

« لا يزالون يتذوقونه تذوقا مستمرا ، بالشفاة العوامل ، في المحافل

الجامعة ، وفى الوحدة المتمطية بهم مع آناء الليل وأطراف النهار ، كان تذوق الشعر عمل النفس العربية الجاهلية ، لا تأخذها عنه فترة ولا ملل بل تهتز وتنشط ، وتبتهج ، وتجد وتهزل ، وتنبسط ، وتنقبض وتجد فيه لذة الحياة التي تخالط الأحياء بالليل والنهار فهي عليه وعلى ما تجد له من أريحية أشد حرصا من حرصها على كل نفيس وغال ، وهكذا كانوا حتى جاء الإسلام ونزل القرآن »[1].

وهذا التذوق الذي ذكره الشيخ كان مزاولة لتذوق أبْنية لغوية ، هي أعلى أبنية لغوية أتيحت للسان البشر ، في كل لغات البشر ، ويبين الشيخ هذا المعنى الدال على أن مزاولة التذوق إنما كانت على أنفس ما صنعه لسان بشرى ، ويؤكد ويذكر أنه لا يتم الفصل بين كلام الله وكلام الناس ما لم يكن الحاضر تحت ألسنتهم أرقى بيان يصنعه الناس من عرب وغير عرب يقول رحمه الله :

« والتذوق المفضي إلى هذا التبين الذي لا عهد للبشر بمثله ـ يريد معرفة أن المتلو عليهم آية من آيات الله ـ ينبغي أن يتم لأصحابه بعد الدربة الطويلة المتوارثة ، ثم لا يبلغ هذه المرتبة من القدرة على الفصل في هذه الآية الفريدة في تاريخ الألسنة البشرية إلا بعد أن يمارس الفصل والتفصيل ، والممايلة والمقايسة على ضروب من الكلام قد بلغت القمة الشامخة في البيان الإنساني ، أو على الأصح بلغت من النقاء والدقة ، والأناقة ، واللطف ، أقصى غاية ، وبلغت من العمق في الدلالة ، بالألفاظ ، والتراكيب والصور ، أقصى التوتر المفضي إلى سر البيان ، الكامن في نفوس البشر ، وإلا يكن

(١) قضية الشعر الجاهلي صـ ١٠٢ .

ذلك كذلك فإن اختراق الحاجز بين البيان الإنساني والبلاغ الإلهي الملفوظ يكاد عندئذ يبلغ حد الاستحالة»[1].

وهذا ما اتفق عليه العلماء وأكدوه وإن اختلفت العبارة .

واختراق الحاجز بين البيان الإنساني والبلاغ الإلهي هو ما عبّر عنه الباقلاني بقوله «يعلم القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة» .

وقلت إن هذا مايوجبه العقل ، لأن التحدي بالأمر الإلهي لا يجوز أن يكون لغير المتناهي في هذا الباب ، وقلت أيضا إن ترتيب التكليف بالعلم بأنه كلام الله على عجز الجيل المخاطب بالتحدي ، لا يكون إلا إذا كان هذا الجيل متفردا في باب حسن الإبانة ودقتها ، وصفائها من بين أجيال العرب ، وغير العرب وإلا انتفض الترتيب .

ومع كل هذا فإن هذه الحقيقة مُغيبة في الدراسة الأدبية ولم تأخذ الحيّز الواجب لها ، والمناسب لعظيم أثرها ، والذي نقرأه عن هذا الشعر أكثره متناقض معها ولهذا كان المرحوم شاكر كثير التكرار لها ومتنوع العبارة عنها ومتنوع الأدلة التي يثبتها بها .

يقول رحمه الله في نص آخر :

«وإذن فالشعر الجاهلي الذي مارس عليه عرب الجاهلية تذوقهم قرونا حتى بلغ التذوق ما بلغ ، تكمن فيه وفى بيانه هذه الصفات ، المربية على ما في سائر الألسنة من الصفات إرباء حقيقيا بالتأمل ، والتبين ، لأن هذه

(١) قضية الشعر الجاهلي صـ ١١٧، ١١٨ .

حقيقته التي دلت عليها هذه المطالبة الفريدة ، لجنس واحد من البشر ، في زمن واحد من الأزمنة ، ختمت بآيته النبوة في الأرض إلى أن تقوم الساعة ، وإذا كانت هذه حقيقة قد غُيبت عنا دهرا ولا تزال تزداد عنا عمى فإن ذلك لا ينفى عنها أنها حقيقة قائمة»[1].

هذا ويجب أن نذكر هنا أن هذا الشعر الذي تكمن فيه الصفات المربية على ما في سائر الألسنة ، هو الذي استقراه عبد القاهر والبلاغيون من بعده ليستخرجوا منه أصول البلاغة ، وقوانينها ، وقد ذكر عبد القاهر أن طريق معرفة هذا العلم هو استقراء كلام العرب يستوي في ذلك ما استخرجه هو بنفسه من استقراء الشعر ، وما شرحه ، وحلله مما رواه الجاحظ من أوصاف حذاق المعاني ، وجهابذة الألفاظ على ما مر ، ولأجل هذه الصفات المربية على ما في سائر الألسنة ولأجل الألفاظ ، والصور والتراكيب البالغة التوتر ، والمفضية إلى سر البيان في النفس الإنسانية ، ربط عبد القاهر بين هذه القوانين البلاغية ، وما هو مركوز في الفطرة وما بنيت عليه الطباع على ما مر .

وكل هذا يلتقي ويتظاهر ويتساند مع ما قاله حازم القرطاجني من أن العرب في جاهليتهم كانوا لا يفترون عن تسديد طباعهم برواية الشعر ، وملازمة الرواية ، وأنهم كان ينشد بعضهم بعضا ، ويستدرك بعضهم على بعض على أصول استخرجوها من هذا البيان المتقادم والذي وصفه الأستاذ محمود شاكر بهذا الوصف الجليل ، وأن ما يكمن فيه من أوصاف قد أربى على ما في سائر الألسنة من الصفات إرباء حقيقيا ، وأن هذه حقيقة دلت

(١) قضية الشعر الجاهلي صـ ١١٨، ١١٩ .

عليها المطالبة الفريدة لهذا الجيل ، وقد ذكرت كلام حازم وأعيده مرة ثانية لأن أقوال العلماء الصادقين في طلب الحق تتلاقى وعلينا أن نجمع بعضها إلى بعض ، وأن نضعها بين أيدي طلاب العلم وتحت نظرهم وبهذا أُمِرْنا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة ، وأكرر ذكر كلام حازم لأنه يكشف العرق الكريم العريق الذي انتهت إلينا منه هذه البلاغة وهو كلام يسانده كلام الشيخ محمود شاكر ، قال حازم« لم تكن العرب تستغني بصحة طباعها وجودة أفكارها عن تسديد طباعها وتقويمها باعتبار معاني الكلام بالقوانين المصححة لها ، وجعلها ذلك علما تتدارسه في أنديتها ويستدرك به بعضهم على بعض ، وتبصير بعضهم بعضا في ذلك وقد نقل الرواة من ذلك الشيء الكثير لكنه مفرق في الكتب ، لو تتبعه متتبع متمكن من الكتب الواقع فيها لاستخرج منه علما كثيرا ، موافقا للقوانين التي وضعها البلغاء في هذه الصناعة »[1].

وطلاب العلم من أبنائنا بين أيديهم كتب كثيرة تجعل مقتبسات علماء علم الأسلوب أصلا وقياسا فما وافقه من كلام البلاغيين يبقى ، وما خالفه يرمى به في النار ، وإذا كانت هذه أصول استخراج القوانين البلاغية فهل يصح معه هذا القياس الذي غلب على من له لحية ومن لا لحية له ؟ !!

وكل هذا الذي قيل من بلوغ هذا الجيل هذا المستوى الأعلى من القدرة على البيان ، والقدرة على العلم بالشعر وما يتبع ذلك ويستلزمه من شغف مفرط بالبيان وبالشعر ، وتربية هذه القدرات على ما أُتيح للناس من أصفى صور البيان ، وأنقاها ، إلى آخر ما ذكرت ينفي نفيا قاطعا مثل هذا الهزل

---

(١) منهاج البلغاء صـ ٢٦ .

كما ينفي أن يكون الشعر حديث الميلاد كما ذكر الجاحظ وقد ناقش الأستاذ محمود شاكر هذا مناقشة كافية ومن المخالف لطبائع الأشياء . أن يكون المهلهل بن ربيعة أول من هلهل الشعر وبلغ ابن أخته امرؤ القيس هذا المستوى المربي على شعر البشر ، وهذا ظاهر وإنما أردت أن أذكر مع هذا الذي ذكرت نصا لأبي الفتح ابن جني وهو يتأمل ما طويت عليه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة كما كان يحب أن يقول قال إنه يوشك أن يعتقد أن الله تعالى « خلق من قبلنا وإن بعد مداه عنا من كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جنانا »[1].

يعني تتابعت عليها أجيال موغلة في القدم رقّقتها وأرهَفَتْها ، وأحكمتها ، ولم يكن ابن جني ينظر إليها من جهة بلوغ شعرها هذه الأوصاف التي أربت على ما في ألسنة البشر ، وإنما كان ينظر إليها من جهة الدقة والحكمة المنطوية عليها أصول الاشتقاق ، وأصول الإعراب ، وهذا بحر آخر وميدان آخر بلغت فيه حكمة أصول قوانين اللغة غاية أسمى وأعلى ، ومن المفيد جدا ألا نعزل الكلام في أسرار الشعر عن الكلام في أسرار صناعة الإعراب .

وأختم هذا البحث بكلمة جليلة له استخرجها من نفسه لما رأى اضطراد كلام العرب في حواضرهم وبواديهم ومنازلهم المتباعدة المتنائية وهم أمة أمية لم تقرأ في الكتب ، ومع ذلك كانت الأصول اللغوية واحدة بين هذه الطبائع المختلفة في المطارح النائية اضطردت في ألسنة كبارهم وصغارهم وعبيدهم وأحرارهم وكل من عاش على أرضهم وهذا شيء كان يذهل أبا الفتح وهو مذهل بحق .

---

(١) الخصائص ١/٤٧ .

قال أبو الفتح« ولو كانت هذه اللغة حشوا مكيلا ، وحَثْواً مَهيلاً ، لكثر خلافها ، وتعادت أوصافها ، فجاء عنهم جر الفاعل ، ورفع المضاف إليه ، والمفعول به ، والجزم بحروف النصب ، والنصب بحروف الجر ، بل جاء عنهم الكلام سُدًى غير محصل ، وغفلا من الإعراب ، ولا استغنى بإرساله وإهماله عن إقامة إعرابه»[1].

ويظاهر كل هذا ويؤكده خبر لا أدرى لماذا أغفله المتكلمون في هذا الشأن فقد روي أن عمر بن الخطاب وكان قريبا من زمن المهلهل كان لا يعرف أولية الشعر في العرب ، وكان يحب أن يعرف ، فسأل كعب الأحبار قال يا كعب هل تجد للشعر ذكرا في التوراة؟ فقال كعب أجد في التوراة قوما من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم وهم ينطقون الحكمة ويضربون الأمثال لا نعلمهم إلا العرب»[2].

وفرق كبير بين أن يكون الشعر في الكتب وأن يكون في الصدور يعمل وينبه ويوقظ ويصقل ومعنى هذا الخبر أن الشعر كان في العرب يعمل ويوقظ ويصقل قبل زمن موسى عليه السلام ولا معنى لمجيء خبره في التوراة إلا أن يكون موجودا قبل نزولها ، وموسى عليه السلام كان قريبا من زمن مضر والذي بين مضر وأبيه إسماعيل قريب جدا من الذي كان بين موسى وأبيه إسحاق في عدد الآباء ولم يكن موسى عليه السلام يجهل أن بني إسماعيل هم بنو أبيه إبراهيم عليهم السلام وربما هجس في نفسه الإحساس بهذه الرحم فتوجه إلى مدين أرض ولد أبيه إبراهيم ، والله أعلم .

* * *

(١) الخصائص ١/٢٤٤ .

(٢) العمدة لابن رشيق .